الحسرة الأولى ...

Le premier Regret

لشاعر الحب لامرتين

[قال لامرتين : « . . في أحد أيام سنة ١٨٣٠ ، بينما كنت داخلا كنيسة في باريز ، إذ بصرت هناك بتابوت فتاة انطفأ سراج حياتها ولما تزل صبية ، قد حمل على الأيدي وأسدلت عليه ملاءة بيضاء ، فذكرني هذا التابوت بموت غرازيلا graziella وعاجت الذكرى شجني ، فطفقت أبكي وأنشج نشيجاً محزناً ، ... ثم عدت إلى غرفتي ونشرت بين يدي مذكراتي عن تلك الحادثة ، ونفست هذه المقطوعة - التي ستقرؤها الآن — وكتبتها في دفتري ، والقلب واجف ، والدمع واكف، وسميتها الحسرة الأولى Le premier Regret : وها هي ذي] :

هناك على سيف المحيط المصطفق ،
حيث يقذف بحر « سورانت » بأمواجه الزرقاء ،
فتتكسر تحت قدمي شجرة البرتقال ،
ثمّ صخرة صغيرة ، ضيقة الحجم ، متساوية الطول والعرض
كانت قريبة من الطريق اللاحب ، تحت الصباح العَبِق
بشذى الأزهار فكانت للغريب الهائم منتدىً ومزاراً .
وأزهار الخيريّ الباسمة قد سترت تحت أغصانها اسماً منقوشاً
على هذه الصخرة ، نعم ! قد سترت اسماً لم يردده الصدى قط فلم
يك معروفاً عند أحد ! ولكن المسافر الذي أنهكه السير ،
يجلس هناك أحياناً ليستريح ، ثم يزيح الحشائش عن الصخرة ،
فيقرؤ عمرها وتاريخ وفاتها ، ويقول وعيناه تشرقان بالدمع أسفاً
وحزناً :
لقد عاشت ست عشرة عاماً ! ولعمري إنها سِنٌّ مبكّرة
إلى الموت ، »
ولكن ! ليت شعري ! لِمَ أحمل نفسي على استذكار تلك
الذكريات الغابرة ؟
فلتدع الهواء يحف ، والنسيم يرف ، والموج يصطخب ،
وتعالي هنا ، أيتها الخواطر المضطربة ، والعواطف الملتهبة !
عودي إليّ قليلاً ، لعلي أرغب في التأمل والعزاء ، ولا
أجهش في الحزن والبكاء !
إن القارئ ليقول : «لم تعش وا أسفاه إلا ستة عشر عاماً»!
— أجل ! لقد عاشت كذلك ! ولكن هذا العمر القليل ،
لم يسطع قط فوق جبين أزهى من جبينها ، ولم تتأمل قط عين
— حبيبة إلى كبيها — إذ تنظر إلى سناء الشاطئ الملتهب ،
وجلال الخضم المضطرب !
لقد أبصرتها أنا كذلك ، حتى أن وجداني قد طبع شخصها
الحي في نفسي ، تلك النفس التي تحتفظ بكل شيء ، فلا تموت
صورة فيها ولا تمحى
نعم لم تزل حية في نفسي ! فكأن عينيها الساجيتين ترمقان
عيني بنظراتهما ، وكأننا كنا سوية نُلقي بأحاديثنا الأولى في اليم ،
وشعرها المقرودن الفاحم يستلم إلى أنفاس النسيم ويسترسل معها ،
فتداعبه تارة ، وتستخف به أخرى ،
ثم يلقي هذا الحجاب الهائم ظله الكثيف ، على وجهها
اللطيف . وإذ كانت ترهف أذنيها ، لتسمع أنشودة الصياد
الذي يتخبط في ظلام الليل ،
ولتنصت إلى أنفاس النسيم العبقة ، حيث تنثر نضارتها
وزهوها ،
ولقد أرتني القمر المبتهج وهو يصعد في السماء ، كأنه زهرة
جميلة في الليل ، ترقب فجرها الجميل ؛ وإلى الزبد الفضيّ المتلألئ ،
كنا ننظر سوية ، فتلتفت إليّ ، وبحنان تقول :
« أخبرني ، لماذا أرى كل شيء يضيء في هذا الفضاء ،
فيتشمشع في نفسي مثل هذا السناء ؟
إن هذه الحقول اللازوردية ، وقد مُلئت بالنيران المتوهجة ،
وإن هذه الرمال الذهبية ، وقد تكسرت فوقها أواذيّ المحيط ،
وإن هذه الجبال الشماء ، إذ تضارع بعلياتها أذن الجوزاء ، وهذه
الخلجان المكللة بتلك الغابات الصّماء ، وهذه الأضواء التي تنبعث
من ضفة الدأماء ، وتلك الأنغام التي تقذف بها الأمواج ، إن كل
ذلك لا يثير نفسي ، ولا يهيج حسي ، بلذة مبهمة ، أو سرور
لا عهد لي بمثله !
ليت شعري ! كيف لا أحلم بمثل هذا اليوم ، وكيف لا أبتهج

بهذه المناظر ؟ هل صعد إلى قلبي ذلك الكوكبُ الدرّي ، فأنار ظلامه ، وبدّد أوهامه ؟

وأنت أيها القمر اللألاء ، سلْ الليالي الحلوة الطلعاء ،

وقل لها : هل تضارع ليالي بلادكِ — إن غبتُ عنك — هذه الليالي في البهاء ؟ »

— وإذ ترمق بنظرتها الوديعة أمها الرؤوم ، حيث كانت على كثب منا . ثم تقطرح على نفسها من السقم ، وتُلقي بجبينها فوق ركبتيّ أمها ، فيعقد الكرى المنيبُ ، أهدابَ عيونها الوُطف .

ولكن ، ليت شعري ؟ كيف أحمل نفسي على استذكار هذي الذكريات الغابرة ؟

فلتدع الهواء يحف ، والنسيم يرف ، والموج يصطخب ،

وتعالى هنا ، أيتها الخواطر المضطربة ، والأفكار الملتهبة !

عودي إليّ قليلا ، لعلي أرغب في التأمل والعزاء ، ولا أجهش في الحزن والبكاء !

لله ما أصفى أديم عينها الساجية ! وما أحلى حمرة شفتها المفترّة !

ولشد ما ترد عينها نظري خاسئاً وهو حسير !

إن بحيرة « نيمي Némi » لجميلة المنظر ، لا تستخف بأديمها نسمة ، ولا تعث بسطها تأمة ، ولكنها رائقة السطح ، لا زوردية الماء ، تشبه بزرقتها أديم السماء !

كنت تستطيع أن ترى أفكارها الساهمة ، من خلال نفسها الخالية ، قبل أن تتعرف إلى شخصها ،

فجفناها الفاتران ، لم يغمضا قط على عينيها الوديعتين ، فيحجبا عنا نظراتها البريئة ، وجبينها المشرق ، ولم تغضنه تباريح الهموم ، ولم تضغطه آلام أو شجون ، فالكل يطفر مرحاً في نفسها وحسها :

أما هذه الابتسامة العذبة الفتية ، فلقد ماتت على فمها البارد .

وكانت من قبل تغمر شفتيها المفترتين ،

كأنها قوس قزح ، صافي اللون ، مبشر بيوم صحو جميل !

إن من القسامة البارعة ، والجهارة الرائعة ، أن يكون هذا الوجه الفاتن مرئياً من كل عين ، لا يحجبه ظل ، ولا تخفيه ظلمة .

فلقد كان هذا القاع اللطيف ساطعاً ، لا تمر بسمائه سحابة .

مضيئاً في كل نفس ، حبيباً إلى كل قلب !

وخطاها الحائرة المترددة ، كانت تسترسل هائمة أو تعدو راكضة ، كأنها موج مستبد ، هدهده النهار واستخف به ،

وصوتها الرنان العذب ، كان صدى صافياً وترجيعاً نقياً لنفسها الوليدة ، وطالما كان موسيقى حلوة لتلك النفس التي يغني فيها كل شيء

فيشرح الصدر ، ويبهج النفس ، حتى يصعد إلى طبقات الأثير حيث يذوب ويتلاشى .

ولكن ليت شعري ! لم أحمل نفسي على استذكار هذي الذكريات الغابرة ؟ فلتدع الهواء يحف ، والنسيم يرف ، والموج يصطخب ،

وتعالى هنا أيتها الخواطر المضطربة ، والعواطف الملتهبة !

عودي إلى قليلا . لعلي أرغب في التأمل والعزاء ، ولا أجهش في الحزن والبكاء !

كما ينطبع نور الصباح على العين ، كذلك انطبعت صورتي في قلبها ؟

ولكنها لم ترن بعينها أبداً ذاك اليوم .

وفي الساعة التي أحبت فيها ، رأت العالم كله فيضاً من الحب والحساسة ! ولقد امتزجت معها في حياتها الخاصة ، وتطلعت من نفسها إلى ذلك الذي استفله الطرب ، فأخذ يمر أمام عينيها ، وإلى تلك السعادة الزائلة ، والأمل المقيم في السموات العُلى !

لم تفكر قط في مرور الزمن ، أو ضياع الوقت ،

فساعة واحدة كانت تشتف وجودها ، وتضيق بها ذرعاً ، وحياتها قبل أن يجمعني الدهر بها ، لا تحتاج إلى ذكرى .

إن مساء أحد تلك الأيام الجميلة كل حظي من الدنيا ونصيبي من الحياة !

لشد ما كانت تركن إلى الطبيعة الضاحكة ، إذ تبسم إلينا ، وتفترّ عن ثغرها الضحوك أمام ناظرنا ،

ولشدّ ما كانت تسكن إلى الصلاة الهادئة ، والدعاء البريء ، وما أكثر ما كانت تأخذ طريقها إلى المذبح المقدس ، حيث تنثر فوقه الأزهار الفواحة بالأرج ، وقلبها يطير فرحاً ، عكس ما يكون باكياً متقبضاً ؛ إذ تجتذبني لأخلق بها إلى هيكلها ، فأقفو أثرها ، كأني غلام وضيع ، أو طفل مطيع ، وصوتها الخافت يناديني ويقول :

« لنصل معاً يا أخي ، فإنني لا أفهم للصلاة معنى بدونك ! ولا أستطيع أن أخبت لك إذا لم تكن حاضراً بقربي ! »

ولكن ليت شعري ؟ لم أحمل نفسي على استذكار تلك الذكريات الغابرة . فلتدع الهواء يحف ... الخ !

هلا نظرتم يا صحابتي إلى الماء النمير ، يتدفق في حوضه . كأنه ينبوع لا يفور؟ هلا أبصرتموه وقد عقد نطاقاً مستديراً ، كما تفعل البحيرة بشاطئها الضيق الصغير ؟ هلا نظرتم إلى زرقته الصافية ، وهو في ذمة الهواء الساري وفي كنف الشعاع الملتهب ، الذي جفف ماءه ، وأضوى معينه ؟ وإذ ذاك يقذف الأوز بنفسه في جوفه ، ليعوم فوق أديمه الرجراج ، وهو يغمس عنقه بين ثناياه المتموجة ؛ فيزين تلك المرآة السائلة ، دون أن يكدرها ، أو يعبها بسوء ويهدهد نفسه وسط الماء ، الذي يعكس النجوم المتألقة في كبد السماء .

ثم يضرب الماء المصطفق بجناحيه المبللتين ، ليأخذ سمته ، مسفاً نحو نبع آخر ، فيمحو بطيرانه صفحة السماء المتعكسة ، في جوف الماء الصقيل ؛ وتسقط منه ريشة ، تكدر صفاءه ، وتنزع عنه رواءه ، كأن فسراً كاسراً ، وهو عدو جنسه الألد ، قد بعثر رقاده المزقة ، ورمى بها إلى كل موجة ، فذهبت بها أباديد ، وإذا باللازورد الساطع ، للبحيرة الرحبة ، يغدو موجة قاتمة ، تصعد فوقها الرمال الميثاء ! وأنا شبيه بذلك الطائر يا صحابتي !

ولقد ذوى كل ما في نفسها ، عندما بعدتُ عنها وشطّ بيَ النوى ، فخبا ذلك الشعاع الضيء في نفسها ، وصعدت جذوتها الهامدة الأخيرة سريعةً نحو السماء ، كيما تعود أبداً بعد ذلك !

لم يكن في أملها ولا في مرجوّها أن تنتظر ثانية أملاً بعدها ، ولم تكن لتذوي أملَها بالريب ، أو لتطّلعَ على ألمها بالحياة

لقد تجرعت كأسَ الألم دهاقاً فترق قلبها بأول دمعة حرّى سقطت من عينها !

ما أشبهها بذلك العصفور الصغير ! إنهما ليتفقان في الدعة والهناء ، وإن قلّ عنها ذاك في الحسن والبهاء !

أتراه عند المساء وقد غشى جناحه عنقه ليناموماهادئاً لذيذاً ؟ وكذلك هي: فقد رقدت مثله ، يغشاها يأس قاتل ، وضني مبرّح ، إلا إن رقادها كان مبكراً . فلم يكن لليلها صباح ، ولا لنومها يقظة !

ولكن ليت شعري ؟ لم أحمل نفسي ... الخ ...

خمسة عشر عاماً قضتها تحت التراب ، وما رثى مصيرها أحد ، ولا بكت ملجأها عين ،

فسرعان ما غسى النسيان - وهو ثانى كفن للموتى — تلك الطريق التي تؤدي بنا إلى شاطئ الحياة ؛

لم يزر أحد وا أسفاه هذه الصخرة التي طمسها الدهر ودرسها ، لم يفتكر بها أحد ، ولم يندبها باكٍ ! إلا مخيلتي فقد قضت لبانتها من حق الذكرى وحق البكاء !

إذا ما قضيت موجة أيامي الأخيرة ، فأحسست بدنو أجلي ، رأيتني أستذكر قلبي جميع من فقدهم فنسيهم ، ثم أرسل عيني نحو تلك الأطلال الخاشعة والآثار الدارسة ، فأذرف الدمع ، وأسكب العبرات ، حزناً على تلك النجوم النيرة ، التي خبا ضوؤها المشتعل ، وانطفأ سراج حياتها من سمائي المتعذرة !

ولقد كانت هي أول الشهب الآفلة ، من نهار بهي جميل ؛ فضوؤها اللألاء لا يزال ينير ظلام قلبي ، ويُضرم ما بقي جذوة حبي !

ولكن ليت شعري ؟ لم أحمل نفسي ... ... ألخ ... ...

كلُّ حظها من الحياة شجيرةٌ شائكةٌ ذات خضرة باهتة لفحتها رياح البحر الشديدة ، وهشمتها أشعة الشمس المحرقة . ورغم هذا بقيت ضاربة بجذورها تحت تلك الصخرة ، دون أن تخلع عليها ظلها ، كأنها حسرة مضنية ، تأصلت جذورها في القلب. وغبار الثرى كما أوراقها طبقة بيضاء ، فاستلقت على الأرض ، وانعطفت أفنانها ، فجذمتها أسنان الماعز الحادة .

ثم تتفتح زهرة ناصعة في فصل الربيع ، كأنها رضاب الثلج ، فتفحر هذه الشجيرة يوماً أو بعض يومين ،

ولا تلبث الريح بعد ذاك أن تطوقها ، وتنثر ورقها ، قبل أن ينتشر عرفها الشذيّ ؛ وعصفورٌ صغير ، شجي اللحن ، حزين النفس ، يقع على غصن الشجيرة المنعطف فيغرد تغريداً شجياً ، هو إلى الحزن والبكاء ، أقرب منه إلى الترجيع والغناء !